الساق على الساق

في ما هو الفارياق

تأليف

أحمد فارس الشدياق

قدّم له وعلّق عليه

الشيخ نسيب وهيبه الخازن

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

١٧

في وصف باريس

كان وصول الفارياق الى هذه المدينة الشهيرة في ذات ليلة ضباب فكانت عيناه معمشتين عن رؤية ما فيها من الخصائص . فلما اصبح اخذ يطوف في شوارعها كالمتفرّغ المتبطل فاذا بها ملآنة من المزالج والمزالق والروامج والروامق[١] والجَرائي والاطناء والرَّباي والمَلْمُوات والجَذّابات والرُجَب والرُوُب والفُخوت والحِراج واللُبَج والبَيّاحات والنِصاحات والمصايد والفخاخ والشواصر والنوامير والقحّازات والدحاحيس والمفاقيس والشصوص والبيضاوات والقُفّاعات والمجازف والخواطيف والعواطيف والكُفف والربَق والطبَق والعوادق والنُشَق والعلاليق والاوهاق والشباك والأشراك والشَوْدكات والاحابيل والكوابيل والشهوم والمصالي . فظهر له ان قوام كل شيء وعتاده وملاكه وقطبه في هذه العاصمة متوقف على وجود امرأة . فجميع الصُوُب والكُلَب والحوانيت والكُفُت والقرابج والكرابج والكناديج والمفاتح والمحاسب والمثابر والانبار والمخازن والمحارف والمصانع والفناتق والفنادق والدكاكين والقرابق والبلاّنات والمنامات والحانات والخانات والافدية والمطاعم والمشارب تديرها نساء واي نساء . وما من كَعْب او تأريجٍ او أوارجة او أنجيدج او بُرْجان او جُذاء[٢] او بَرْنامِج او عهده او محضر او جَذر او

(١) الرامج ملواح يصطاد به الجوارح وكذا الرامق .

(٢) عبارة القاموس في ب ر ج وحساب البُرجان قولك ما جُذاء كذا في كذا وما جذر كذا في كذا فجذاؤه مبلغه وجذره اصله الذي يضرب بعضه في بعض وجملته البرجان انتهى غير انه لم يحك في باب الياء غير الجداء بالدال المهملة وعبارته الجداء كغراب مبلغ حساب الضرب ثلاثة في ثلاثة جداؤه تسعة . واضرب عن ذكر الضرب بهذا المعنى في موضعه .

وصْر او قِط او فنداق او صَكّ او فذلكة او سَيّال او ترقيم او ترقين او جداء الا وتتعاطاه المرأة هنا . واللبيب من الرجال من اتخذ في حانوته او محترفه رابجا مليحاً يلوّح به للشارين والمجتازين في السبيل . ولا فرق بين ان يكون ذلك الرامج من اهل بيته او غريباً وانما العبرة بانفقاس الفخ على اعناقهم .

هذا وقد اختصت نساء باريس بصفات لا يشاركنهن فيها احد من نساء الافرنج . فمن ذلك انهن يتكلمن بالغنّة والخنّة والنشيج والهَزَج والهُزامج والترنجح والتطريب والسَكْت والحَبرة والنبرة والاجَشّ والتعثيث والترجيع والاضجاع والقُطْعة والتغريد والتهويد والمدّ والترسيل والترتيل والفصل والوصل والزَّجَل والهلهلة والادغام والترخيم والتدنيم والترنيم والرَّوْم والاشباع والتفخيم والامالة والتنعيم والتنغيم والتحزين والحنين والجَدَن والتلحين والطَّسْن والشجو والترنية . حتى ينتشي السامع فلا يعلم بعد ذلك هل هن يفككن ازراره او فقاره . ومن ذلك تغيير الزي في كل برهة وبهن تقتدي سائر النساء فلو لبست احداهن مثلاً عَبْعبا او حزَقت ثوبها لعبّ الناس حب ذلك العبعب وصار التحزيق سنة فيهم . وعنهن يؤخذ ايضاً تقصيب الشعر وسَبْته وتسريحه وتسميده وتجميره وضفره وتطريره وتنفيشه وعقصه وتصفيفه وزرقلته وتشكيله وفرقه وكَدْحه وكدهه وادّراؤه وجدله وتفتيله وتغبيته ومشطه الكُعْكُبّة والمُقدّمة واتخاذ قصّة منه او قزّعة او قُنزعة وجعله مكرهفاً او مسبلا . ومن ذلك انه لطول ترددهن على مواضع الرقص يحسبن كل مكان يطأنه مرقصاً . فترى المرأة منهن تمشي في الاسواق والشوارع وهي تميد وتميل وتتخلع وتتفكك . ويا ليت مولانا صاحب القاموس كان يعرف البُلْكَى والمازركَى والسّوتشكى والكدريل والريّدوقَى والفلس وغيرها من ضروب الرقص حتى كنت أرويها عنه هنا في حق الماشيات في باريس . ومن ذلك تحكّمهن على الرجال وتعزّزهن عليهم في كل حال وبال . فترى الرجل يماشي المرأة وقلبه بين رجليها . واذا خلا معها في البيت فهي الآمرة الناهية المستعلية

القاضية . وهو المُصحِب المِصحاب المُدَربح المُدَلبح المُدمّح المكبـــوح المعنوج المصوّب المدبّخ المتزيّخ المختضَد المُسجد المعتسَر المشروس المتّضع . ولا يزلن طول الدهر وحـاماً ولا حَبَل . وبرمن ان يكون لهن كل شيء صِهابيّا مؤربّا مرفـّلا موفـّرا مؤنـّفلا مسبغا ضافيا مرتـبزا وافيا تامّا كاملا . حتى ان اللغة الفرنساوية مبنيّة على هذا الوحم. وذلك انهم يحذفون في اللفظ اواخر جميع الالفاظ المذكورة وينطقون بها في المؤنثة . وعلى ذلـــك قول الفارياق

عند الفرنسيس المؤنث واجب تبليغ آخره الى الاسماع
وهو الدليل على تؤوق نسائهم طبعاً على التبليغ والاشباع
او انه صفة الكمال لهن ان يك ممكنا يومالذات قناع

وكان احد التيتائيين من نحاتهم غاظه ذلـك فجعل من بعض قواعد لغتهم تغليب المذكر على المؤنث . ولكن هيهات فـان امرأة واحدة هنا تقوى على عشرين ذكراً . ومن ذلك ان عنوان جمالهن مكتوب على جباههن نظما ونثرا. فمن النظم

مَلـَكُ الجمال اعزّ من ملك له جند واعوان وعرش ارفع
ذو المـُلك تتبعه الجنود تكلفا ولذي الجمال الناس طوعاً تتبع

ومنه

من حارب العِين خانته مضاربه وليس يجديه شحذ السيف عن جلده
فمضرب السيف مشحوذ على حجر ومضرب الطرف مشحوذ على كبده

ومن النثر . الكلام بالغنّة ، شفاء من العُنّة. فرط التنهيد أبلغ في التهنيد. الخـَدَل جلاء المقل . ضخم الحماة يفتح اللهاة . صغر الاقدام يقزح الادام . كم صريع في السوق من كشف السوق . ان ابراز الترائب كاشف غمّ النوائب ان العَبعَب املأ للعين واحب . ان الاعجان داعي الافتتان . ان النوّق اصل الشَنَق . لا تفكن الا ويزيله التبهكن . التهم ادعى للتهيم والتتيّم

المغاضنة دليل المحاضنة . غلائل الصيف امضى من السيف . لافرار بعدّ الافترار . لا عاصم بعد كشف المعاصم . توهج الطيب . اشوق للحبيب . رب ابتسامة جلبت غرامة . العين غزّالة . والقامة فتّالة . الحسن معبود . والدينار منقود . الدينار فكّاك الازرار . من اكثر من الصله نال ما امله البضع لذي الدنيا والدنيا لذي البضع . من ذاق عرف ومن غازل هرف . الى الملهى الى الملهى . فبادر ثمّ لا تله . وعللها بكاس ثم عما شئت فاسألها .

والحاصل ان الفرق بين عنوان جمال الفرنساويات وجمال الانكليزيات هو ان الاول من قبيل التداوي من الشيء بضده . والثاني من قبيل التداوي منه بجنسه . وذلك ان العنوان الاول هو ناطق عن الونى والفتور والترهل والتربخ والاسترسال والاسترخاء والاسترخاخ والاسترخاف والرشرشة والنشنشة والانخرار والثملطة والثلمطة والختت والهنبتة واللوثة والهلاث والابثئجاج والطرشحة والامرخداد والترترة والتختر والفيشوشة والتعّة والخراعة واللخع والطريقة والرهوكة والثرطلة والغدَن والانثطاء المستدعية لنقائضها من الاشتداد والتصلّب والاتمئرار والتأتّب والتقسّح والتقسّب والتوتر والتعلّب والتعرّد والتعلّد والانزاز والتأدّد والعَصّ والاستعزاز والتأيّد والكأن والاتكاع والتكلد . وجمال اولئك عنوان على هذه الصفات المستدعية لنظائرها وكلاهما في المرأة حسن . ومن ذلك انهن يرين التقليد في الحب والزيّ معرّة فكل واحدة منهن تجتهد في فنّها حتى تصير قدوة لغيرها . اما في الزي فمنهن من تقبّب صدرها بقدر ما تقبّب نساء الانكليز بتائلهن . ومنهن من تتخذ لها قبّتين من قبل ومن دبر . حتى تكون اذا مشت عائقة اساتها ومواجهها . وكشف الساق لابراز الحماة ونظافة الجوارب مطرد لهنّ . فاما في الحبّ فمنهن من تريد على صفات المدقم الصفة التي ذكرها ابو نواس في الهمزية . ومنهن من يوثر التجضّم الكمري أو الامتلاج القنبي . واكثر الناس حرصاً على هذا الشيوخ المحنكون . فامْصاصهم وتبظيرهم ليس من السب في شيء . ومنهن من تجمع بين اللذتين الخرنوفية والفنقورية ولها سعران .

ومنهن من تزيد على ذلك ما أراد الشيخ جمال الدين ابن نباتة من شوص الفرخ وله ثلاثة اسعار . ومنهن من تزيد عليه الشوص بالاخمصين وله اربعة . ومنهن من تمكن من قفط النَوْدلين وثغر ما بينهما مجردا . ومنهن من تضيفه الى اللذتين المذكورتين مع شوص الفرخ بانامل واخامص وهو اغلى ما يكون . ومنهن من تتفاحل وتتقمّد على اخرى مثلها . وهذا النوع عزيز لا يراه الا الموسرون . ومنهن من تتعاطى الحرفة التترسية وهو قرع الترس بالترس .

ومن اغرب ما يكون ان بعض شيوخ الفرنساوية الذين يشب فكرهم وتخيلهم لهرم اجسامهم ووهن حركتهم يوثرون على جميع الانواع المذكورة التلمُّظ بالعذرة وذلك بان يتضجع أحدهم وهو عريان ويامر من تستوي فوقه وتملا فمه . ومنهم من يستغني عنه بشرب الزغرب من مشخبه زُغلة زُغله أو بمص القنب . وقد يجتمع رجال بواحدة فيقيمونها بين ايديهم عريانة ويقعد لدى قبلها ودبرها اثنان . ويأخذ آخر في صب الشراب من فوق صدرها وظهرها. فيبادر إليه الرجلان فاغرين افواههما ويشربانه عند مروره على السَّمَّين والنساء المثريات المغتلمات يستعملن رجالاً يقودون اليهن كل من رأوه ابتع من الرجال ولا سيما من اهل الريف . فيدخلون عليهن في بعض الديار وهن متبرقعات كيلا يُعرَفن ثم يأجرنهم على ذلك . وفي الجملة فان كل ما يخطر ببال النحرير من أمور الفسق يراه الانسان في باريس بعينه بالعَيْن .

واعلم ان اهل باريس قد اصطلحوا على أمور في المعاش والنساء تميزوا بها عمن سواهم . اما في امر المعاش فان من يأكل منهم في المطاعم الشائعة فانه يشارط صاحب المحل أو بالحري صاحبته على ان يعطيها في الشهر قدراً معلوماً ويأكل عندها شيئاً معلوماً . فتعطيه تذاكر توذن بعدد المرات فيدفع ثمنها ثم يعيدها عليها فيودّي عن كل غداء أو عشاء تذكرة . فيتوفر عليه في ذلك ربع المصروف . وقس عليه الحمامات والملاهي وما أشبهها . فأما أمر النساء فان أصحاب البيع والشراء لما كانوا قد اتخذوا لادارة اشغالهم نساء حساناً كما سبقت الاشارة اليه ، فاذا خرجن في الليل بعد انقضاء اشغالهن

ترصدتهن الرجـــال ودعوهن الى مواضع الاكل والقهوة والرقص واللعب . فتذهب كل واحدة مع من تحب . فمتى رافقته الى احد هذه المواضع علم ان حقه عليها صار ضربة لازب . فاما ان يستوفيه منها تلـــك الليلة فقط أو يوافقها على اعادة الوصل في كل اسبوع مثلاً مرتين او ثلاثا وان يعطيهـــا في آخر الشهر اجرة معلومة . وما بقي لها من الساعات فانهـــا توجره لآخرين باجرة معيّنة . فترى للواحدة منهن عدة عشاق تواصلهم في اوقات مختلفة من الليل والنهار . ومع ذلك فلا تزال تلقب بدمْوازل وهي كلمـــة تطلق على الابكار على وجه التعظيم . ومعناها سيدة غير ذات بعل. ومنهم من يتصدى لمعرفة هؤلاء البنات من المراقص . فيعمد الرجل الى بنت ويدعوها للرقص . فاذا اعجبته واعجبها دعاها للشراب في موضع مخصوص في المرقص وعقـد عليها عقد الزيارة الشهري . ومن عامل واحدة منهن مشاهرة لم ينفق عليهـا نصف ما ينفقه لو قضاها على كل مرة على حدتها وللنساء رخصة في باريس ان يدخلن جميع المراقص العمومية من دون ان يدفعن شيئاً اجتذاباً للرجـــال بكثرتهن . ولكن عليهن ان يرقصن معهم اذا استرقصوهن . الا اذا اعتذرن لهم بعذر يقبلونه كأنْ تقول المدعوة مثلاً قد دعاني آخر من قبلك فلا بد لي من ان ارقص معه أو نحو ذلك . ثم لا حرج ايضاً على من اكترى في منزل بيتاً مفروشاً كان او غير مفروش ان تزوره صاحبتـــه في مسكنه . سواء كانت من النوع الذي ذكرناه اعني من النساء اللائي بمنزلة بين الحرائر والزواني أو من غيره . وان تبيت عنده على علم من الجـيران والسكان . فان منزلة هذا عند منزلة أهل باريس كمنزلة المتزوج . ولا فرق عند اهـل باريس بين امرأة متزوجة لها سبعة بنين وسبع بنات تربيهم في تقوى الله وطاعة الملك وبين قحبة تبيع عرضها لكل ابن سبيل وتتفنشخ لكل مجتاز في الطريق كما تقول التوراة .

وهناك اسباب اخرى كثيرة للفساد في الديار . وذلك انه لما كانت جميع الاشغال في باريس تديرها النساء وكان منهن غسالات وخدامات لهن يأخذن

ثياب السكان وخياطات وفرّاشات وبياعات للمأكول والمشروب والملبوس ، امكن للرجل ان يصاحب واحدة منهن فتأتيه مياومة اذا شاء بحجة انها تقضيه شيئاً او تبيع له حاجة او ملايلة او مشاهرة او مساوعة او محاينة وذلك ممنوع في لندرة . بل ربما صاحب الرجل امرأة من نفس الدار التي يسكنها . لان ديار هذه المدينة العامرة لما كانت تشتمل على عدة طبقات وكان أصغرها يحوي في الاقل عشرين نفساً ما بين رجال ونساء . امكن للرجل ان يعاشر احدى جاراته . بل المتزوجون المقيمون في هذه الديار لا يأمنون على نسائهم وبناتهم لان الرجل اذا خرج من بيته وخالفه فيه جاره الى زوجته مئة مرة في اليوم لم يمكنه ان يعلم ذلك لقرب ما بين المسكنين . ولهذا كان اهل باريس اقلّ غيرة على نسائهم من جميع الناس . لانهم ربوا على هذا ولا مناص لهم منه . ولا يمكنهم ان يربوا اطفالهم عندهم خوفاً من تضجر الجيران منهم . وانما يبعثونهم الى الريف من اول اسبوع ميلادهم فيربون في احجار المراضع وهي عادة حميدة من جهة ان الاطفال يتقوّون هناك بطيب الهواء . وهناك سبب آخر وهو ان المُطفل بترشيحها ولدها وتربيته تخسر من نفع حرفتها أكثر مما تعطيه للظئر لان نساء باريس يباشرن جميع الحرف ولا يرين في التكسب عاراً باي وجه كان . وهنّ في البيع والشراء اشط من الرجال ومن تكن جميلة تتقاضَ على النظر الى جمالها شيئاً زائداً على الثمن . ثم ان حالة الرجال مع النساء على المنوال الذي ذكرناه تعد عند هؤلاء الناس من المصالح المهمّة المرتّبة المطردة . بمعنى انه ليس من دار الاّ ويحصل فيها وصال بين الرجال والنساء مع مراعاة حرمة كل من الزائر والمزور . ومع عدم الاخلال بالوقت الموقوت لكيلا يحصل تعطيل للمزور في شغله . ومع مجانبة ما يسوء الجيران من لغط وعربدة .ولا تكاد ترى في باريس كلها فقيرة او مومسة تطوف في الليل وهي سكرى كما ترى في لندرة . وندر وجود احداهنّ في متأخر الليل . وقلّ من آذت زائرها او قاصدها .

وهناك فرق آخر بين نساء الفرنسيس والانكليز من جهة الخُلق لا الخَلق

فالظاهر من نساء الانكليز في الغالب الكِبر والأَنَفَة والصُلف . والظاهر من نساء الفرنسيس اللين والبشاشة . الا ان نساء الانكليز لا يتدللن على الرجال ولا يحشّمنهم الترف والتحف والولائم والملاهي والمنازه والفرج . فأكلة من الكباب وكرعة من المزر تكفيان في استجلاب رضاهن . وليس عندهن من الروم والمحال . والخلب والاختتال . والدها والنكر والاحتيال ما عند نساء باريس .فاما ان تحب احداهن مثلا شخصاً وترضى معه بالكثير والقليل واما ان تصرمه . فاما نساء باريس فمهما يظهر منهن من الملاينة والمباغمة ، والملاطفة والملاءمة . فاذا عاشرت واحدة منهن وشعرَتْ بانك ارتبقت في هواها ورُقبت تبغنجت عليك وتدللت . وتصلّفت وتحلّت . واوهمتك ان مجرد كلامها معك منّة . . وان ارضاءها والخضوع لها سنة . وان كثيراً في عشقها متيمون ناحلون . هائمون ناسمون . حتى تستقل عليها كل كثير من الصلات والهدايا فتقبل منك ما تقبل وانت لها من الشاكرين . واذا دعوتها لوليمة فلا بد من اروائها من الرحيق المختوم . وتوحيمها بافخر المطعوم . فتلتهم ما تلتهم وتشتفّ ما تشتف وهي متشبعة متعففة . متمنعة متظرفة . فاذا ضحكت حسبت ان ليس لضحكها من نظير . واذا مشت ودت لو كان خطوها على الديباج والحرير . حتى ان هذا التصلّف ايضاً صفة ملازمة للمتزوجات . فان المرأة المتزوجة في باريس تغرّم زوجها على كسوتها فقط ما ينفقه المتزوج من الانكليز على جميع اهله . فدأب الرجل في باريس وهمه وشغله ارضاء زوجته وهيهات ان ترضى وما احسن ما قيل في هذا المعنى :

لا يعجب الزوج الا ان تكون بمن تحب محفوفة آولا فاعنات
وكيف يرضى امرء يحمي حقيقته بالقِرن والقَرن افتوا ايها النات

وقال

وداخلة الانسان تفسد كلها اذا اصبحت زوج له أم خارجه
ويخرج عنه الحلم لو قيل مرة له هي في البيت الفلاني والِجَه

ولهذا يقال في المثل السائر عند الفرنساوية ان باريس نعيم النساء ومطهر الرجال وجحيم الخيل . ولما كانت حالة الرجال مع النساء هكذا كان ثلاثة ارباع سكان باريس مسافحين . ونصف الربع الاخر متزوجين زواجاً شرعياً والباقي منقطعون عن النكاح . كذا اخبرني من يوثق بكلامه . ثم ان المومسة من الانكليز تعرف نفسها انها غير حرة وتعرف ايضاً ان الناس يعرفونها كذلك. فلا تكلفهم احترامها . ولا تسومهم اعظامها. فاما البغي من الفرنسيس فعندها ان مجرد استبضاعها للبضع يؤهلها لان يكرمها الناس ويداروها . ويجلوها ويسانوها . وذلك لعدم استغنائهم عنها . وجرّهم النفع منها . وقد تقدم ان الفرنساوية لا يفرقون بين الحرة والبغي وبقي هنا ان نقول انهم اشد الناس شبقاً الى البعال . واقرمهم الى السفاح . وناهيك انهم في الفتنة الكبيرة التي حدثت في سنة ١٧٩٣ اقاموا امرأة عريانة على مذبح احدى الكنائس وسجدوا لها . فصوّر لخاطرك ايها القارىء كيف تكون الرجال والنساء في هذه المدينة في ليالي الشتاء البارد الطويلة وكم من ملهى يغص بهم وبهن وكم من مآب . وكم من مائدة تميد لهم بالطعام والشراب. وكم من سرر تهتزّ . ومضاجع تأزّ . واجناب تلزّ . واوطاب تمزّ . واوتار تنزّ . انشدني الفارياق لنفسه في وصف باريس واجازني روايته :

وفي باريس لذات كما في جنان الخلد جير وحور عين
ولكن شأنهن دوام طمث لكل اربعون من القرين

وقال في الراقصات

لله در الراقصات لنا على نغم المثاني حيث تجلى الكوب
لو كان يوماً وطؤهن عليّ لم تثقل لديّ من الزمان خطوب

وقال في رامج

ذي الباريزية طلعتها كالصبح بها قلبي مغرم
في الليل اريد تحيتها فاقول لها بُن جوْر مادم

قال وكما أن الغريب المسكين ينشرح صدره وينجلي بصره بمشاهدة تلك الحكاكات للاعتاب في لندرة على الصفة التي تقدم ذكرها . كذلك تقرّ عينه برؤية امثالهن في باريس طائفات في الشوارع والاسواق من دون غطـــاء على رؤسهن ولا ساتر لخصورهن وما يليها . بخلاف عادة النساء في لندرة فانهن لا يخرجن الا ملتحفات . قال وعندي ان هاتين الخلتين وهمـــا حك الاعتاب والخروج من دون التحاف هما السبب في قلة وجود العميان في هاتين المدينتين السعيدتين . وقلما ترى في رجالها احول او ازور او احوص او اخوص او ارمص او اكمس او أعشى او اخفش او اعفش او اعمش او اعبش او اغمش او ارمش او امتش او ذادوش او مـــدش او طخشّ او غطش او غفش او طَفَنْشاً او غطمّشاً او مغطرشاً . او مطغمشاً او مطرفشاً او مطفرفشاً او مطنفشاً او مدنفشاً او مدنقشاً . فعلى كل من كان في بلادنا اعمش ذا عين ان يقصد هذه البلاد ليجلو بصره بهذه المناظر الانيقة . وليستصحب معـــه أيضاً لهذه الجلاء جلاء اي لقباً ينبي عن شرف وسيادة . فان القوم يعظمون هذه الزَمة ولا يرون للانسان فضلا بغيرها . وعلى فرض تحرّجه من الانتحال والتزوير فان غناه يكسبه اياها من عندهم . لانه متى كان غنيـــاً وجعل دأبه ان يتردد على مواضع اللهو والحظ لم يلبث ان يتعرف بزمرة من الكبراء السعداء وان يزورهم في مغانيهم. و حِ يسمونه بسمة شرف تشريفاً لهوتشرّفاً به اذ لا يزورهم الا الشريف مثلهم. فاما حرص النساء على هذه الزمة وخصوصاً نساء الانكليز فهو اوسع من ان يحصر في هذا الكتاب .